

اللغات السامية

مجال علم اللغات

محمد سليم رشاد

الاستاذ المعاصر في الجامعة الاردنية

عمرت اليمن وجعلت منها موطنها لها ، وجعلت تبتمد هذه الساميات عن امها السبئية بترأخي المصور ، وتنائي الديار ، واختلاط هؤلاء النازحين بمختلف الاقوام (2) ممن جاورهم في اصقاع الارض ..» .

ثم ان هؤلاء العلماء قسموا هذه اللغات السامية الى اسر ، عرفت فيها اللغة الكنعانية وما تفرع منها بالاسرة الغربية ، وعرفت فيها اللغة البابلية وما تفرع منها بالاسرة الشرقية . ثم عرفت فيها اخيرا اللغة العربية وجاراتها الحبشية وما تفرع منها بالاسرة الجنوبية .

وان موضوعنا الذي نخوض فيه يقتضي ان نطيل الوقوف عند الكنعانية التي اصبحت الاصل الذي تشعبت منه لغات الاسرة الغربية . وكانت اللغات العبرية واحدة من هذه اللغات .

وهي الرسم من ان هذه اللغات العبرية قد تسرب اليها الكثير من الدخيل ، بسبب هجرة

ان اول ما نلتفت اليه حتى نتحدث عن اللغات السامية في مجال علم اللغات ، هو ذلك المصدر البعيد ، الذي نبعت منه هذه اللغات السامية جميعا ، وتشعبت منه في الشمال والجنوب في الاقطار المختلفة التي استقر فيها ابناء هؤلاء الساميين منذ اقدم العصور .

وقد اختلف العلماء في تعريف هذا المصدر البعيد وفي نعمته وتسميته ، فمنهم من قال : « ان هذا المصدر الذي تشعبت منه سائر اللغات السامية هو اللغة (السامية الاولى) التي نطق بها في اعماق الدهر اقوام زالت بزوالهم وفنيت بفنائهم ، وبقيت منها ظلال ورسوم ، يلحمها الرائي على السنة احفاد اولئك الاقوام ، الذين تنوعت سنتهم باختلاف مواطنهم (1) في الشمال والجنوب .. »

ومنهم من قال : « ان هذا المصدر الذي تشعبت منه سائر اللغات السامية ، انما هو اللغة (العربية الاولى) ، التي نطقت بها سبا في غابر الدهور ، حين

- (1) ذكر هذا الرأي المستشرق (اولس هاوزن Ols Housen) في صدر كتابه ، الذي تحدث فيه عن « اللغة العبرية وتاريخ نشأتها » . والكتاب موضوع في اللغة الالمانية ومترجم الى الانجليزية .
- (2) ذكر هذا الرأي المستشرق اليهودي : (ليون ماحرز Lion Mahraz) وكذلك الدكتور علي العناني ، وذلك في كتابهما الذي صدر بعنوان : « الاساس في الامم السامية ولغاتها » وقد وضعاه في اللغة العبرية .

ابنائها العبرانيين الى مصر ، واقامتهم الاجيال الطويلة فيها ، ثم تشردهم بعد ذلك في بلاد (ملكان) قرابة نصف قرن من السنين ، وهي ايام التيه في سيناء .

وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه اللغة ظلت قريبة الشبه من امها الكنعانية ، وغير بعيدة عنها . حتى كان اليهود انفسهم يصفون لغتهم العبرية ، بانها (لسان كنعان) . وقد ورد ذلك صراحة - وفي مواطن كثيرة - في اسفار كتابهم المقدس .

وان اللغة العبرية لم تشارك الكنعانية في اصولها فحسب ، بل شاركتها في حروفها ، ومن اجل ذلك كتبت العبرية - اول ما كتبت - بالحروف الابجدية الكنعانية ، وظلت تكتب بها طوال العهد الذي مر بالعبرانيين منذ استوطنوا ارض كنعان ، الى ان كان السبي وخراب بيت المقدس . وكان شاهد ذلك ، النقش الذي خلفوه في نفق (عين سلوان) عند الزاوية الشرقية من سور مدينة القدس الحالي (3) ، كما كان شاهد ذلك النقود التي عثر عليها في اطلال بيت المقدس من ايام عهد (الهيكل) ومن ايام عهد (المكابيين) الذين شردهم الرومان بعد ثورتهم عليهم .

وقد بقي من آثار اللغة العبرية - التي هي بنت الكنعانية - الكتاب المقدس في عهده القديم ، الذي يدل عليها اكمل دلالة ، ويسهل دراستها للباحثين ، ويقدم لهم صورة تكشف الكثير من ملامح امها الكنعانية ، التي كان من بناتها الى جانب العبرية : الفينيقية والنبطية والعمورية والموآبية ، وسواها من ساميات الاسرة الغربية .

وحين نبغى مقارنة لغات الاسرة الغربية ، بلغات غيرها من بنات الاسرتين الباقيتين ، لا نجد

امامنا ما يصلح لمثل هذه المقارنة غير لغتين اثنتين فقط ، هما : اللغة العربية من بنات الاسرة الجنوبية ، ثم اللغة الآرامية (ام السريانية) من بنات الاسرة الشرقية . وذلك لان ما عداها ، اما انها ضاعت معالمها الاصلية ، لكثرة ما اقتحم عليها من دخيل الشعوب المجاورة ، كاللغة الحبشية في الاسرة الجنوبية ، واما انها زالت بؤوال اهلها ، كالاشورية ، والكلدانية . وسواها من بنات الاسرة الشرقية المتفرعة من البابلية .

ولما كانت اللغة العربية هي موضع الاهتمام كله بالنسبة لنا - نحن ابناءها الناطقين بها - وفي ظلها تدرس اللغات السامية من اجل ان نستكمل الاحاطة بها ، وتوغل الى جذورها البعيدة خلف اعماق الدهر ، حين كانت المبتدأ الذي منه تشعبت هذه اللغات السامية جميعا ، كما تكاد تجمع آراء الباحثين ، لذا فان مثل هذه المقارنة بينها وبين ما نتوصل الى معرفته من بنات هذه الاسر جميعا ، هو نهاية المدى وخاتمة المطاف والغاية التي نستهدفها من هذه الدراسة .

اذن بقي علينا ان نلتزم مثل هذه المقارنة بينها وبين اللغة الآرامية (ام السريانية) ، وعندها لا بد لنا من الوقوف عند مدينة (الرها) نلثم بتاريخها ، ونعرف اخبار علمائها الذين التحقوا لغتهم بالكثير الكثير من روائع المؤلفات في مواضيع مختلفة . ثم نلتفت بعد ذلك الى الاثر الخالد وهو الانجيل في اللغة الآرامية لغة السيد المسيح ، الذي كان وجدته السبب في بقاء هذه اللغة تتردد في ساحات الكنائس على السنة المصلين . ورغم ذهابها من حياة الناس ، حيث استبدل بها اهلها في كثير من ارجاء الارض لغة الشعوب التي فرضت عليهم سلطانها .

ولن ينقص من الاهتمام بهذه اللغة ، كونها لغة انحسر ظلها ، واصبحت في عديد اللغات التاريخية ،

(3) اسمها في لغة الكنعانيين القديما (شلوح) وكانت تطلق على الينابيع وعندهم نقلها العبرانيون، وفي اللغة المؤابية تقابلها كلمة : (اشوح) ، وقد وردت في (حجر ذيبان) ، واشير بها الى مورد الماء . وهذا الحجر عثر عليه في الاردن على مقربة من بلدة مادبا .

(4) الرها: اسمها الآرامي (ارهوئي) ، واسمها اليوناني اديسا - Edessa) ، وقد كانت حاضرة العلم . وفيها قامت لها مدارس تنقل الحضارتين الافريقية والهندية الى ابناء المشرق ، ويؤلف علماءها في ذلك الكتب الكثيرة . وهي التي اتمدها المترجمون في عهد الخليفة المأمون العباسي .

تتناول شأنا من شؤون اللغة ، والبحث في تاريخها وأصولها ، وقد استعمل هذا اللفظ قبل الميلاد في مدرسة الإسكندرية للدلالة على معرفة علوم اليونان والرومان في لغتيهما الإغريقية واللاتينية .

ثم تجوز الناس فيه فإذا هم يطلقونه على كل علم من العلوم مهما كان نوعه ، ومهما اختلف موضوعه ، ومهما تشعبت فيه المسالك واختلفت الأسباب . واستمر به الحال على هذه النوال ، حتى كان بدء عهد النهضة العلمية في إيطاليا ، وعند ذلك عاد لهذا اللفظ معناه ، الذي حدد له أيام مدرسة الإسكندرية . وفي أواخر القرن الثامن عشر ، اتسعت دائرة هذا الفن اللغوي ، فشمّل البحث فيه كل لغات بني الإنسان ، وليس فقط اللغتين : اليونانية والرومانية ثم ما في هذه اللغات الإنسانية من إنتاج عقلي ، حتى أصبحت كلمة (فيلولوجيا) تدل على المعنى الآتي وهو : « علم اللغات ، الباحث عن جميع الدراسات ، لدى كل أمة من الأمم ، لمعرفة اللغات وأصولها ، وكل ما أنتجته معرفة الإنسان » .

لذلك كان على (علم اللغات) أن يقدر درجات الرقي الإنساني العام ، في اللغة والأدب وفي النظم الاجتماعية وفي الحياة الفردية ، وفي الدين والصناعة والعلوم . ومن أجل ذلك صح أن يقال : (الفيلولوجيا المصرية) أو (اليونانية) أو (العربية) أو (السريانية) أو (العبرية) أو (الهندية) وما سواها . والمراد من ذلك هو كل ما لهذه الأمم واحدة واحدة من إنتاج عقلي ، ونصيب مدني مدون في لغاتها .

على أن العلماء الذين تفرغوا لدراسة (علم اللغات) ، اصطالحوا إزاء هذا المعنى العام على وصف (الفيلولوجيا الرتبة) أو (الفيلولوجيا المحتدأة) . وذلك عند الإشارة إلى ما كان للاغريق والرومان (6) .

وغرض علماء اللغات عندها من ذلك ، هو الإشارة إلى ما كان يقصد بمدلول (الفيلولوجيا) في مدرسة الإسكندرية ، من أنها العلوم اليونانية والرومانية

التي تدرس من أجل أن تبرز غيرها ، بسبب صلتها بها وقربها منها ، واشتراكها معها في الأصول والأعراق ، وذلك حالها مع اللغة العربية وموضعها منها ، ومكانها في إبراز أصولها الجميدة ، ومن أجل هذا :

فإن دارس اللغة العبرية في أصولها القديمة والحديثة ، باعتبارها لغة تاريخية ذات علاقة وثيقة - من ناحية الأصول والصادر - باللغات السامية في أسرها الثلاث ، وبالتالي باللغة العربية ، يحسن به أن يحيط إلى جانبها باللغة الآرامية ، ولو وقف ذلك عند حد قراءة النصوص ، وتصريف الأفعال والأسماء مع الضمائر ، والإلمام بتاريخ هذه اللغة ، ومدارس علمائها يوم كانت في عهد ازدهارها ونهضتها ، وبذلك يكون قادرا على المقارنة بينها وبين العبرية من ناحية ، ثم المقارنة بينهما معا وبين اللغة العربية من ناحية أخرى .

* * *

وحين نبلغ هذا المدى ، يجدر بنا أن نعلم بأن مقارنة لغة بسواها من اللغات القريبة منها أو المشاركة لها في أصولها - كما هو الحال بين اللغات السامية على اختلافها - إنما هو علم له قواعده وأصوله ، يسمونه (علم اللغات) ، وهي تسمية كان لها مدلولها منذ عهد اليونان الأقدمين ، حين كانوا يحملون مشعل المعرفة لمن عاصروهم من أهل زمانهم ، وكانوا يلفظونها يومذاك (فيلولوجيا) وهي مركبة (5) من كلمتين : (فيلولوس) ومعناها صديق ، و (لوجوس) ومعناها كلمة ، وعلى ذلك يكون معنى الكلمتين حين اجتمعتا معا هو : (صديق الكلمة) وقد رمزوا بها إلى العالم الباحث .

وأول من نطق بالكلمة المركبة هو الحكيم (أفلاطون) ، وأراد بذلك توجيه الرغبة إلى البحث العلمي . ثم صار هذا اللفظ يطلق على كل تفرغ إلى استيعاب المعرفة ، أيا كان نوعها ما دامت هذه المعرفة

(5) فيلولوجيا : هذا التركيب المرجسي يكتب باللاتينية (Philologia) كما أن كلمة (فيلوس) : تكتب باللاتينية (Philos) وكلمة (لوجوس) : تكتب باللاتينية (Logos) ، وذلك لمن أراد البحث عن مدلولها مفصلا في المراجع غير العربية .

(6) الرتبة : ومثلها كذلك (المحتدأة) ، ترجمة حرفية للأصل اللاتيني وهو (Classique) الذي كثيرا ما يستعمرونه إلى العربية بلفظه حين يقولون : (كلاسيكي) .

لمعرفة ما في هذه اللغات جميعها من إنتاج عقلي ،
في مجالات الدين، والعلم، والفلسفة، والأدب ،
وتاريخ الأدب، والمقارنات اللغوية، والمعنوية ولذلك
سميت (الفيلولوجيا العامة).

وقد وصلت أبحاث هذا العلم اللغوي الشامل
الى نتائج كبرى ، غيرت وجه التاريخ الانساني ،
وأقامت النهضة العلمية الحديثة ، على اسس ثابتة ،
ودعائم قوية ، وكونت علوما مستقلة ما كانت لتظهر
في عالم الوجود ، لولا علم اللغات .

* * *

وأما ما حصلت عليه البشرية من فوائد (علم
اللغات) ومنافعه الكبرى ، فقد كان كثيرا لا يحصى،
وحسبنا أن نذكر من ذلك أننا بفضل هذا العلم ،
توصلنا الى معرفة العاديات وحل النقوش والخطوط
القديمة ، ومعرفة لغات هذه الخطوط وتلك النقوش،
ومنها الهيروغليفية والكتابة السنسكريتية ، والخط
المسامري في اللغات : السومرية والبابلية والآشورية.

وبينما كان التاريخ العام يستند الى قامته
الاسطورية القديمة ويعتمد على روايات الكتب المقدسة،
ويرى في رحلات الرحالين ، وأقوال الرواة ،
والإخبار التي تقوم على الحدس والتخمين ، بينما كان
التاريخ العام كذلك ، إذ بهذا العلم يزحزحه بقوته
الجبارة ، عن مكانته تلك ، ليرتكز على الأدلة الملموسة
والشواهد المرئية ، من الآثار القديمة ، والعاديات
السالفة والوثائق التاريخية المدونة ، والمخطوطات
القديمة ، فيغير بذلك وجه التاريخ العام تغييرا كلياً،
ويقسمه الى قسمين :

الأول : ويتناول ما دونت حوادثه الآثار ، ودلت
عليه السجلات الرسمية ، وأوضحته وأقرته العلوم
الطبيعية التجريبية ، ويعرف بالتاريخ الصحيح .

والثاني : ويتناول التاريخ المروي، أو التاريخ
الاسطوري . وهو ما لم يتوافر فيه ما توافر في
التاريخ الصحيح من أدلة وبراهين . على أن هذا النوع

القديمة ، وعلوم (التحرر الانساني) التي ابتدأت منذ
القرن الثاني قبل المسيح ، في مدرسة الاسكندرية
المذكورة (7) ، والتي ظهرت بقوة فعالة من جديد في
عهد احياء العلوم .

* * *

ويمكن حصر (الفيلولوجيا) المتعددة بعد عصر
احياء العلوم في (إيطاليا) في أربعة أدوار وأن تداخل
بعضها في البعض الآخر .

الدور الأول : وهو (الدور الإيطالي) ويمتد
تاريخه من منتصف القرن الرابع عشر الى منتصف
القرن السادس عشر .

الدور الثاني : وهو (الدور الفرنسي) ويمتد
تاريخه من منتصف القرن السادس عشر الى أواخر
القرن السابع عشر .

الدور الثالث : وهو (الدور الهولندي البريطاني)
الذي بدأ تاريخه من أواخر القرن السابع عشر ،
واستمر الى نهاية القرن الثامن عشر .

الدور الرابع : وهو الأخير ويسمونه (الدور
الألماني) ، إذ بدأت به ألمانيا من أواخر القرن الثامن
عشر ، ولا يزال في نموه المتطرد حتى الآن .

ولو ذهبنا نحصى ما أنتجه كبار الباحثين
والمفكرين من العلماء في هذا المجال ابتداء من (الدور
الأول) ، حتى (الدور الأخير) ، لضاق بنا الحصر
لكثرته البالغة .

* * *

والى جانب (الفيلولوجيا الربية) ، ابتدأت
(الفيلولوجيا العامة) أو (علم اللغات)، وذلك في أواخر
القرن الثامن عشر ، فأفردت للبحث اللغوي ، في كل
اللغات الانسانية قديمة وحديثة ، حية وميتة ، وذلك

(7) التحرر الانساني : ترجمة حرفية كذلك لكلمة (Humanism) التي يستعملونها هي
الأخرى الى العربية حين يقولون : (هيومانزم).

المستفيضة في ضوابط اللغتين العربية والعبرية . ان ذلك كله لم يصل الى توسيع دائرة البحث اللغوي الذي يمكن ان تسمى نتائجه (علم اللغات) . وان الفكرة المتطرفة القائلة بان (اللغة العبرية) هي اللغة الانسانية الاولى، كانت مشبطة للهم في البحث اللغوي الحر .

من التاريخ لا يكون محلا للطعن او الرفض الا اذا جاءت البراهين الاثرية ، والنتائج العلمية الطبيعية بعدم صحته ، والا بقي الحكم له او عليه للمستقبل ، وما عسى ان تأتي به البحوث اللغوية الاثرية ، او تجارب العلوم الطبيعية مما يؤيده او ينفيه .

* * *

على ان التقارب بين اللغتين : العبرية والعربية، دفع المشرقين اليهود - منذ القرن العاشر الميلادي - الى البحث والمقارنة بينهما من جهة ، وبين (العبرية) و (الارامية) من جهة اخرى . وفي القرن السابع عشر ادرك المشرقون مدى القرابة بين اللغتين : (العبرية) و (العربية)، فدفعهم ذلك الى البحث عن هذا التشابه ، بين (العربية) واللغات السامية الاخرى، فوصلوا من ذلك الى معرفة المجموعة السامية .

ومن فوائد علم اللغات ايضا ، دراسة العقليات القديمة، وتطور الفكر الانساني ، ومدنيات الاجناس البشرية ، وروابط الامم والشعوب ، ومكانتها في المجهود العقلي الانساني والانتاج الاجتماعي المدني .

وقد اتجج (علم اللغات) علوما كثيرة ، لها اهميتها الكبيرة في حياة الانسان وكذلك في ثقافته العامة ، منها :

وفي القرن التاسع عشر ، وصل الباحثون بفضل (علم اللغات)، الى الكشف عن العلاقة بين السنسكريتية (الهندية القديمة المقدسة) وبين الفهلوية (الفارسية القديمة) من جهة ، وقرابتهما الى اللغات الاوروبية من جهة اخرى ، فوصلوا من ذلك الى تكوين مجموعة (اللغات الآرية) ، او (الهندوجرمانية). وذلك الى جانب المجموعة المتقدمة، التي عرفت بمجموعة (اللغات السامية) . ومن هناك انطلقوا الى دراسة اللغات الاخرى في مختلف انحاء هذا الكون الفسيح، فوصلوا من ذلك الى سلسلة طويلة يضيق عنها الحصر .

(علم مقارنة اللغات) مقارنة لفظية ومعنوية ، و (تاريخ ادب اللغة) ، بعد ان كان ادبا فقط ، و (تاريخ آداب اللغات المغارن) ، و (علم فقه اللغة) ، و (النقد الفني) ، و (النقد الادبي الكامل) . وكان هذا العلم الاخير موجودا من قبل ، ولكن على مستوى لا يجاوز حد البساطة في اذواق الادباء والمتأخرين والمتأدبين من (8) اسلافنا القدماء .

وخلاصة القول ، فان (الفيلولوجيا العامة) او (علم اللغات) ، لم يجاوز كونه وليد القرن التاسع عشر ، وان ما تقدم هذا العهد من الاشتغال بقواعد اللغتين الاغريقية واللاتينية ، وما تقدمه من الابحاث

المراجع :

- 1 - كتاب الاساس في الامم السامية وشعوبها ولغاتها ، للدكتور علي العناني ورفيقه ، ط 1 الجزء الاول . القاهرة - مطبعة بولاق 1925 ، ومن مواطن مختلفة فيه .
- 2 - كتاب تاريخ اللغات السامية للدكتور اسراييل ولفنسون ، وفيه بحث عن اللغات السامية جميعها وشواهد وشروح ، وقد اعتمدت الكثير منها . ط 1 (القاهرة) 1929 .
- 3 - كتاب بروتو كولات حكما صهيون ، من الاجزاء الاربعة . وخاصة ما تناول العبرية وما جاورها من لهجات كنعانية ، تأليف حجاج نوبهض . ط 1 . بيروت 1967 .

(8) فقه اللغة : كان هذا العلم معروفا ايام حضارة العرب ، ولكن في مدلول محدود لا يجاوز حقيقة الفاظ اللغات وكلماتها . وفيه الف الثمالي كتابه: (فقه اللغة). وهو اليوم علم واسع ، يتناول فيما يتناوله في اللغات الحديثة ، العلم الذي يطلقون عليه : (Etymologie)